موضوعات اللسانيات النفسية في التراث العربي

من الموضوعات المهمة جدا التي يهتم بها علم اللغة النفسي الحديث اهتماما بالغا؛ ظاهرة اكتساب اللغة (الأم والأجنبية/أو الثانية)، والنظريات التي تفسرها.

سنبين في الآتي آراء العلماء العرب في هذه الظاهرة وتأثيرهم في علماء اللغة المعاصرين. ذلك أن اللغويين العرب القدامى تحدثوا عن ظاهرة اكتساب اللغة (الأم والثانية) في موسوعاتهم العلمية القيمة منذ اثني عشر قرنا ،ومن بين هؤلاء الذين تحدثوا عن هذه الظاهرة عند الأطفال الجاحظ حيث يقول: "والميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال،كقولهم ماما،وبابا؛ لأنهما خارجان من عمل اللسان وإنما يظهران بالتقاء الشفتين فهذان الحرفان هما أول ما ينطقهما الأطفال عند اكتسابهم أصوات اللغة بالإضافة إلى الألف الذي ينطقونه لحظة ولادتهم؛، ." وأنهما أسهل الحروف عليهم، لكونهما لا يحتاجان إلى فعل ٍ اللسان الذي يكون -عادة - ثقيلا عليهم في النطق في مستهل اكتسابهم للغة. ومن الظواهر الأخرى التي عالجها الجاحظ ظاهرة اكتساب اللغة الثانية في وقت متأخر من العمر ويطلق على هذه الظاهرة في اللغة المرحلية أو الوسطى Interlanguage"ُ– اسم التحجر Fossilization وهو أن الكبير لا يستطيع أن يكتسب اللغة الثانية بشكل صحيح مهما حاول ذلك، ولهذا تراه يقول: "فأما حروف الكلام لسنة ٍ فإن حكمها أذا تمكنت في الألسنة

خلاف هذا الحكم. ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيرا لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا، ولو أقام في عُليا تميم وفي سفلى قيس، وبين عجز هوزان خمسين عاما، وكذلك النَّبطي القح خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط، لأن النبطي القح يجعل الزاي سينا، فإذا أراد أن يقول: زورق، قال: سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول: مشمعل، قال: مشمئل والنخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة، بأن تقول: ناعمة، أو تقول :شمس ثلاث مرات متواليات.[1]

ويبين الجاحظ السبب في عدم اكتسابه النطق السليم للغة لأنه:"متى ترك شمائله على حالها ، ولسانه على سجيته،كان مقصورا الهشأ على الشكل الذي لم يزل فيه".

بيّن الجاحظ تأثير اللغة الأم في اكتساب وتعلم اللغة الأجنبية أو الثانية في المراحل المتأخرة من العمر عند المتعلمين الأجانب. وقد عالج علم اللغة النفسي الحديث هذه الظاهرة، وهو ما يؤكده الحمداني بقوله:" إنّ التعرض المتأخر للغة قد يكون جيدا وأن الناس يتعلمونها بشكل سليم،

ولكن اعترض بعض الباحثين على هذه النتائج. وقد جاءت بعض الاعتراضات مستندة إلى روايات أو قصص واقعية. فهناك أناس تعلموا لغة ثانية في كبرهم وأبدعوا فيها (فقد كتب الأديب ذائع الصيت جوزيف كونراد بالإنجليزية بعد أن تعلمها على كبر...).

ولكن أصحاب هذه النظرية يردون على ذلك بالقول: إن نظريتهم تدور حول عامة الناس، ولا يقاس على عدد قليل من المبدعين النابغين... ولكن من النادر جدا أن يتعلم الشخص لغة ثانية بعد الشباب بطلاقة تشبه طلاقة أصحاب اللغة الأصليين،

وعندما يشاهد الناس مثل هذه الحالة الخاصة، فهم يتحدثون عنها بإعجاب ودهشة كبيرين. فكبير السن الذي يتعلم لغة جديدة إنما تمنعه عاداته الراسخة في التلفظ والقواعد في لغته القديمة من الاعتياد على العادات الجديدة... وهذا ما يؤكده براون" بقوله:" إن الدارسين بعد سن البلوغ لا يصلون إلى نطق طبيعي للغة الأجنبية في الأغلب الأعم"[2]. إنّ هذه الآراء .ً حول اكتساب اللغة الثانية تؤكد ما قاله الجاحظ منذ اثني عشر قرنا تقريبا. حيث إن اكتساب اللغة في مرحلة الطفولة أسرع وأفيد للمرء من أن يتعلمها في الكبر، ويضرب لذلك مثلا بالرجل السندي الذي تعلم اللغة العربية في مرحلة عمرية متأخرة، فهو لا

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 70.

[2]- براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، تر/عبده الراجحي، ص: 66.

يستطيع أن ينطق الحروف بشكل صحيح؛ ولو بقي بين ظهراني العرب الفصحاء. وهذاما أكدته الدراسات اللغوية النفسية الحديثة .

وهناك ثلاث نظريات حديثة تطرقت لتفسير اكتساب اللغة عند الإنسان، وهي كما يأتي:

النظرية السلوكية: ويمثلها في تراثنا اللغوي القديم ابن فارس حيث يقول عن اكتساب اللغة الأم عند الأطفال بأنها: "تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات. وتؤخذ تلقنا من ملقن، وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ذوي الصدقوالأمانة وتُتَّقى المظنون"[3].

ويدعم هذا الرأي قول ابن خلدون: " فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم،واستعماله يتكرر،إلى أن يصير ذلك ملكة وصفةراسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال."[4]

فالنظرية السلوكية في علم اللسانيات النفسية تأخذ بهذا الرأي وتنتصر له وتؤكده: . ذلك أن ..."المبدأ الأساس الذي اعتمدت عليه هذه النظرية في اكتساب اللغة الأم هو أن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء، خالية من المعلومات اللغوية، وأن البيئة التي ينشأ فيها تسطر في هذه الصفحة ما تشاء، سواء أكانت بيئة طبعية كالوالدين والإخوان والأقران، أم بيئة تعليمية تربوية كالمدرسة بما فيها من معلمين وبرامج ومناهج[5].

ويرى أصحاب هذه النظرية أن الطفل يكتسب اللغة بالسماع والتلقين والتدريب والمران،و يعتمد على التقليد اعتمادا كليا وقد يلجأ إلى القياس أحيانا ، ويؤمنون بأن تصويب المحيطين به لأخطائه اللغوية –حين الوقوع فيها –يعدل من سلوكه اللغوي، ويقوده إلى اكتساب لغة سليمة صحيحة [6] يتضح من هذا الطرح تأثر النظرية السلوكية الحديثة برأيي ابن فارس وابن خلدون حيث إ أن اللغة تكتسب بالسماع والتلقين والتمرين والمحاكاة.

ثانيا: النظرية المعرفية الفطرية: ويمثلها ابن خلدون [7]؛ حيث يقول: إن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب. وقد ميز الله تعالى الإنسان عن الحيوان بالفكر. وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه. ويبدأ من التمييز. فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر.

قال تعالى في الامتنان علينا: " ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾تبارك 23. فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولي فقط لجهله بجميع المعارف، ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾العلق5 ، أي أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلا له بعد أن كان علقة ومضغة. فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي، وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهي الإنسانية وحالتاها الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي.

.فالنظرية المعرفية الفطرية في علم اللغة النفسي الحديث التي يتزعمها تشومسكي ترى رأي ابن خلدون وتأخذ به؛ وهو أن اللغة فطرة خاصة بالإنسان دون غيره من المخلوقات، وأن اكتسابها فطرة وقدرة عقلية مغروسة فيه منذ ولادته،وأن أي طفل يولد في بيئة بشرية معينة سوف يكتسب لغة الإنسان هذه البيئة التي يعيش فيها، بغض النظر عن مستواه التعليمي والاجتماعي، ما لم يكن مصابا بأمراض أو عاهات عقلية تمنعه من تلقي اللغة أو فهمها أو استعمالها. واللغة - بهذا المفهوم

3- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص: 34.

4- ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص: 1278.

5- Skinner,B.F. Verbal Behavior,NY

6. غاردا جورج وكريسيني، نظريات التعلم، دراسة مقارنة

7- مقدمة ابن خلدون، ج3، ص: 1017، 1018.

كما يعتقد السلوكيون ء يكتسب بالتقليد والتلقين والتعليم والمران والممارسة وحسب -ليست سلوكا- وإنما هي فطرة عقلية معرفية[8]

وبالإضافة إلى ذلك، يقول الحمداني في هذا المجال: "إن جزءا من القدرة على تعلم اللغة فطري، وفي الوقت نفسه لابد وأن اللغة متعلمة. كيف نوفق بين هاتين المقولتين: اللغة فطرية ء واللغة متعلمة؟ إن اكتساب اللغة شأنه شأن العمليات النمائية لدى الحيوانات كافة، يتضمن تعليما يخضع بشدة لشروط بيولوجية تسيّر النمو في مسارات محددة تقررها ميولا ت ومؤهلات وقدرات معينة ، يحملها الفرد وراثيا من الواضح أن الطفل العربي لا يتكلم العربية بالفطرة،ولا الطفل البرتغالي ء يتكلم البرتغالية بالفطرة. وعلينا أن نتعلم اللغة التي نتحدث بها"[9]. أي إن الإنسان يتعلم اللغة ويكتسبها بعد الولادة من خلال المحيط والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه،بما زوده الله من أجهزة النطق والكلام.

ولقد أكد ابن خلدون هذا القول بأن التعليم كسبي ويحصل للمرء بعد الولادة حيث يقول:"وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق ذلك المتناول حاصلا، وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علما وبين العالم النحرير.

والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون سواهما. فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي. والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أوفي الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة؛ فتفتقر إلى التعليم"

وعليه فما جاءت به النظرية المعرفية الفطرية الحديثة من أفكار في هذ ا المضمار إنما يعتمد على آراء ابن خلدون حيث يقول : اللغة ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الأمر أنها جبلة وطبع. وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه. ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربِي في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى تستولي على غايتها؛ وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصّل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أجيالهم، والقوانين بمعزل عن هذا

يريد ابن خلدون أن يقول: إن ملكة اللغة عند الإنسان ليست وراثية أو طبيعية، ولكنها تحتاج إلى ممارسة وتدريب وحفظ لكلام أهل اللغة حتى يصبح الناطق بها كأنه واحد منهم. وهذا ما نادى به تشومسكي من أن اللغة فطرة خاصة بالإنسان، وأن اكتسابها فطرة وقدرة عقلية مغروسة فيه منذ الولادة.

ثالثا: النظرية الوظيفية: تبحث النظرية الوظيفية في علم النفس الحديث عن الجوانب المعرفية الحقيقية؛ كالذاكرة، والإدراك، والفكر، والعاطفة، والمعنى، وغيرها من الجوانب التي تتكامل لتكون المعنى والوظيفة اللغوية، وتحقق الهدف الحقيقي من الكلام وهو التواصل[10] ونستطيع أن نتحسس خيوط هذه النظرية، ومبادئها، وأسسها في التراث العربي، من ، خلال حديث الجرجاني عن نظرية النظم حيث يقول: "ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما لو كانت دلالة فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهي واستخبارا وتعجبا، ء الكل وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبيها على ما هي موسومة به. وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة

---

[8]- العصيلي، علم اللغة النفسي، ص: 251.

[9]- الحمداني، علم نفس اللغة من منظور معرفي، ص: 185.186.

[10]- العصيلي، علم اللغة النفسي، ص: 255.

معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ... وإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى لمعنى التي تليها،وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ[11].

ركز الجرجاني على أمرين اثنين :أولهما: المعنى الذي يقوم عليه مدار النظم حيث يقول: لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ... دون المعنى. فالأهمية إذن هي للمعاني وليست للألفاظ والعبارات المجردة من المعاني.

وثانيهما: التركيز على العملية التواصلية في الكلام حيثي قول: "فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف. حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به[12]

وقد بين الجرجاني أن النظم لا يعني معرفة قواعد النحو وقوانينه ومناهجه فحسب، وإنما هو معرفة معاني النحو وأحكامه كما يبدو تأثير الجرجاني - بل وتفوقه - على تشومسكي في عرضه لنظرية النظم، والتي، والتي تعني معرفة معاني النحو وأحكامه، بينما يعدها تشومسكي معرفةقواعد اللغة (النحو) فقطويطلق عليها اسم الكفلية.

وما يؤكد صواب رأي الجرجاني وأحقيته وشموليته، ما قاله "ريتشارد" "و"روجرز" حينما انتقدا تشومسكي في تعريف الكفاية: "إن الكفاية تعني المعرفة بقواعد اللغة والقدرة على استعمالها بطريقة صحيحة لغويا ومقبولةاجتماعيا[13]

لقد أدرك القدامى العلاقة بين الذات واللغة والجماعة واللغة, وأن اللغة أداة تعبير كما أنها وسيلة تواصل.

وفحصوا أبعاد الكلام باعتباره قيمة بين الإنسان والمجتمع. يبرز الغزالي البعد النفسي– الجماعي لظاهرة الكلام فيقول إن الإنسان بدون خطاب حبيس لذاته. ويربط التوحيدي الكلام بـ "الحاجة" ويتحدث الجاحظ عن الكلام كوسيلة لتعبير الفرد عن "حقائق حاجاته"، ويعزو ابن جني السلوك اللغوي إلى الوعي بضرورة سد الحاجة النفسية والاجتماعية .أما عبد القاهر الجرجاني فيرى أنه لولا الكلام "لبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونةً في مواضعها".. كان العرب ـ إذن سباقين إلى تبيان الصلة بين اللغة من جهة ، والنفس والمجتمع من جهة ،فكانوا بذلك روادااللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية.

---

[11]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، علق عليه، أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهر، مصر، ص: 43-46

[12]- نفسه، ص: 415.

[13]- ريتشارد، جاك وروجرز، ثيودر، مذهب وطرائق تعليم اللغات، تر/ محمود صيني وآخرين، دار عالم الكتب، الرياض، ص: 124-137.